يوتوبيا



بقلم د.أحمد خالد توفيق



قصة رعب

د. أحمد خالد توفيق

يوتوبيا (١)

المشهد كان مهيبًا خاصة أنه لا يتم على شاشة التليفزيون.. كل شيء حقيقي مروع قاس.. و.. وفاتن.. لا تنكر هذا..

رأيته وهو يتوقف وقد أنهكه التعب.. بفقر الدم والجوع اللذين يفتكان به لا يمكنه أن يخوض هذه الطاردة للنهاية.. رأيته ينحني ليلصق كفيه بركبتيه طلبًا للهواء.. ثم رأيته ينظر لأعلى بينما الهليوكوبتر تدور حوله في تؤدة وبدون قلق.. إن معها كل الوقت.. ثم انطلقت الرشاشات فنظر لأعلى.. إن مخرجي السينما حمقى عندما يظهرون المصاب يسقط على الأرض فورًا.. كلا.. لقد نظر لأعلى وبدا كأنه يريد أن يقول شيئًا ثم سقط على الأرض ووجهه في الرمال..

شهقت (جرمينال) رعبًا لكني لمحت في عينيها ذلك البريق.. بريق إثارة لا شك فيه.. صدرها يعلو ويهبط.. وتلامست أصابعنا حيث وقفنا هناك خلف السلك نرمق الهليوكوبتر تنخفض، ثم الحارس الأمريكي يثب منها ليتفحص الجثة.. كل هؤلاء الحراس من رجال (المارينز) المتقاعدين ولا أعرف سبب ذلك، لكنهم بالتأكيد لا يفتقرون إلى اللياقة البدنية..

في هذه اللحظة بالذات اختمرت الفكرة في ذهني..

أنا لم أعد طفلاً... لقد تجاوزت السادسة عشرة.. عاشرت كل فتاة راقت لي، وجربت كل أنواع المخدرات حتى (الفلوجستين) الجديد الوارد من الدانمرك.. يقولون إنه باهظ الثمن لكن ما معنى باهظ الثمن ؟.. هذه الكلمة نلوكها بفمنا دون أن نعرف معناها.. ما أعرفه هو أنه يأخذني بعيدًا بمجرد أن تضع قطرة منه على جلد ساعدك، وعندها ترى تلك النيران الفاتنة التي استمد منها اسمه.. تفيق بعد ساعات لتدرك أنك بحاجة للمزيد..

أنا لم أعد طفلاً.. (رامي) خاض تجربة الصيد ومرح كثيرًا.. (شادي) فعلها.. (راسم) جربها ولم يستطع أن يخفي شيئًا عنا.. لقد عرض علينا التذكار الذي جلبه من هناك، ويبدو أنه كان تحت تأثير البانجو، ذلك المخدر الردىء الذي كانوا يتعاطونه في أوائل القرن.. طبعًا في العام ٢٠٢٠ صار الفلوجستين هو اسم اللعبة..

قررت أن أجرب أنا نفسي.. كانت (لارين) عائدة من المول عندما صارحتها بذلك.. قلت لها إن الوقت قد حان كي أجرب بنفسي..

بدا عليها الذعر كما توقعت وقالت لي في هستيريا:

-"لو عدت للكلام في هذا الموضوع سأخبر أباك!"

قلت لها في تحد:

-"(مراد) لا يتدخل في شئوني"

قالت وهي تلوح بإصبعها في وجهي:

-"اسمه بالنسبة لك (بابا) وليس (مراد).. أنا أسمح لك بأن تناديني باسمي بدلاً من كلمة (ماما) لكي أحتفظ بصداقتك، لكن هناك حدودًا يجب ألا تتجاوزها... وأنا لن أسمح لك بهذا.."

ابتلعت غيظي.. أحيانًا أشعر أن (لارين) حمقاء فعلاً..

لقد جربت كل شيء، وعرفت كل شيء.. ليس هناك من جديد يثير فضولك أو حماسك في (يوتوبيا).. لا شيء يتغير.. أحيانًا يخيل لي أننا معتقلون وأن الذين بالخارج هم الأحرار..



يذكرك الأمر بمعسكرات الاعتقال النازية التي تراها في أفلام الحرب..

(يوتوبيا)... تلك المستعمرة المنعزلة التي كونها الأثرياء على الساحل الشمالي ليحموا أنفسهم من بحر الفقر الغاضب بالخارج، والتي صارت تحوي كل شيء يريدونه..

يمكنك أن ترى معي معالمها.. البوابات العملاقة.. السلك المكهرب.. دوريات الحراسة التي تقوم بها شركة (سيفكو) التي يتكون أكثر العاملون فيها من (مارينز) متقاعدين.. أحيانًا يحاول أحد الفقراء التسلل للداخل فتلاحقه طائرة الهليوكوبتر وتقتله كما حدث في ذلك المشهد الذي لا يفارق خيالي..

بعد هذا منطقة الحدائق.. منطقة المدارس.. منطقة دور العبادة التي بها أكثر من مسجد وكنيسة ومعبد يهودي.. منطقة المولات.. ثم ترى القصور.. قصر (علوي) بك ملك الحديد.. قصر (عدنان) بك ملك اللحوم.. قصر أبي ملك الأدوية.. ثم المطار الداخلي.. هناك مطار طبعًا حتى لا تضطر للخروج.. في الماضي كان يسيطر على قومي هاجس الهرب للمطار لو أن الآخرين ثاروا.. رحلة المطار ستكون شاقة ومريعة وخطرة.. لهذا قرر قومي أن يبنوا مطاراتهم الخاصة داخل مجتمعاتهم.. مع الوقت لم يعد هناك خطر من الثورة، لكن المطارات ظلت في مكانها على سبيل الترف..

من حين لآخر ترى مطاردة عنيفة بين سيارات الشباب.. غالبًا ما تنقلب سيارة أو اثنتان وهذا يضفي إثارة غير عادية على الحياة، لكنك للأسف لا تستطيع قلب سيارة كل ساعة في اليوم...

(مراد) - أبي - ليس هنا.. إنه في سويسرا يراجع أرقام حسابه.. هذا نشاط محمود على كل حال لأن هذا يعني أنه سيضاعف ما أنفقه على الفلوجستين.. أحيانًا أتمنى ألا يضيع وقته ويرسل لنا النقود من الخارج..

دنوت من (مايك روجرز) قائد رجال الأمن.. رجل أمريكي من ميسوري لطيف المعشر له شارب أشقر رفيع.. معه أستمتع بالكلام بالعامية الأمريكية ذات اللكنة الريفية، مع استعمال الكثير من الشتائم البذيئة التي تضحكه. سألته عما إذا كان بوسعي أن أجرب الصيد..



قال في حزم:

-"مستحيل.. ولو حاولت لمنعتك.. إن الظروف خطيرة هذه الأيام والمغامرة غير مأمونة"

قلت في ضيق:

-"منذ ولدت تقولون إن الظروف خطيرة هذه الأيام.. لا شيء يحدث.. هؤلاء الذين خارج الأسوار خراف لا أكثر.. صدقني"

قال وهو يشعل لفافة تبغ:

-"لو اجتمعت الخراف على طفل لمزقته تحت أقدامها.."

-"هذا لو كانت تملك قدرة الغضب.."

-"هم فقدوا القدرة على الغضب، لكنهم كالخراف يهتاجون أحيانًا بلا سبب ولا مبرر واضح.. ونحن نعيش إحدى هذه اللحظات.."

ثم نفث دخان التبغ وقال في ملل:

-"اسمع.. لن أسمح لك ما لم أتلق أمرًا صريحًا من مستر (مراد)"

وكنت أعرف أن مستر (مراد) لن يوافق.. هو لا يرغب في المجازفة بوريثه الوحيد...

هكذا جلست ذات ليلة مع باقي الشلة نتعاطى الفلوجستين، ثم أشرت لـ (جرمينال) كي تقترب مني.. كانت شاحبة قليلاً بعد جراحة الكح[...] والتفريغ التي أجرتها الأسبوع الماضي للمر[...] الثالثة للخلاص من ابن جديد لي، وكانت ف[...] حالة انسجام تامة فلابد أنها تغوص وس[...] النيران الخضراء الآن.. قلت لها:

-"لقد قررت أن أخوض التجربة.. أريد أ[...] أحضر تذكارًا.."

شهقت في جزع وإن لم يبد أنها مذعورة حق[...] فأضفت:

-"نحن هنا ذقنا كل المتع.. نفس ما مر ب[...] نيرون وكاليجولا.. لم يعد من شيء يضفي[...] الإثارة على الحياة مثل أساليب هذين.."

قالت هامسة:

-"لكن هذا خطر.. أنت تعرف هذا.. ه[...] يكرهوننا بجنون ولو رأونا بينهم فسوف....."

-"هذا هو ما أريده.. الخطر.."

بدأ وجهها يتقلص من النشوة لسماع هذ[...] الكلمة.. الخطر.. الإثارة.. كلمات لم تعد ف[...] قاموسنا..

برغم أن الصيد غير قانوني فإن الكبار كانو[...] يتجاهلونه ما دمنا لا نكشف عنه علنًا.. لكن[...] نحن الشباب صرنا نعتبره نوعًا من اختبار[...] الرجولة.. (راسم) فعلها.. تسلل ليلاً إلى منط[...] من تلك المناطق المخيفة التي يعيشون فيها[...] أعتقد أن اسمها منذ عشرين عامًا كان (با[...] الشعرية) أو شيئًا من هذا القبيل.. اختطف[...] واحدًا من هؤلاء القوم العاطلين وعاد به إل[...] (يوتوبيا)، وقضى ورفاقه أيامًا ممتعة م[...] ملاحقة هذا المخطوف بالسيارات.. ثم قتلو[...] واحتفظ (راسم) بيده المبتورة بعد ما قا[...] بتحنيطها.. كل واحد من أصدقائي قام يومًا [...] بهذه الرياضة: رياضة صيد الفقراء.. وعا[...] منها بتذكار..

قلت لـ (جرمينال):

-"الليلة ننطلق إلى الخارج لنأتي بواحد منهم[...] ولسوف تأتين معي.."

لمعت عيناها حماسًا..

لكني كنت أفكر في خطة مناسبة.. من السه[...] أن تتسلل لعالم الفقراء بالخارج، لكن العسر ك[...] العسر أن تستطيع المرور من بوابة الحراس[...] المحكمة حول (يوتوبيا).. إن الفقراء وأبنا[...] الأكابر يبدون متشابهين عندما تراهم في الظلا[...] من طائرة..

ماذا أفعل؟



قصة رعب

د. أحمد خالد توفيق

يوتوبيا (٢)



كنت غارقًا وسط النيران الخضر التي صارت علامة مميزة لعقار (الفلوجستين).. نار خضراء باردة تسبح فيها وتنتشي ثم تخرج رأسك طالبًا المزيد.. قلت لـ(جرمينال):

-"هل تعرفين أنهم هناك لا يستعملون أسماء (لارين) و(جرمينال)..؟.. يستعملون أسماء مثل (باتعة) و(زكية) و(عطيات).."

وانفجرت ضحكًا.. لا أعرف السبب بالضبط لكن الأمر راق لي كثيرًا..

قالت (جرمينال) وهي تدخن لفافة التبغ الخامسة:

-"أعرف هذا.. نراه أحيانًا في التليفزيون في تلك التمثيليات العتيقة"

الحقيقة أن لنا تليفزيوننا الخاص الذي يعرض فقط ما تريده أنت.. هناك إقبال عال على أفلام الجنس والعنف والجريمة.. من الغريب أنهم يقبلون على ذات الأفلام في تليفزيوناتهم الرخيصة لكن لأسباب تختلف.. حب العنف هنا سببه الملل.. حب العنف هناك سببه الفقر..

كانت العاشرة مساء وقد حان وقت التحرك.. لقد رسمت الخطة بعناية.. في الحادية عشرة تصل السيارة التي تنقل العمال لمناطقهم العشوائية.. نعم هناك عمال في يوتوبيا لأن هناك أعمالاً لا نستطيع القيام بها.. يأتون صباحًا بحافلة خاصة ويعودون بها ليلاً، وهم تحت المراقبة في كل الظروف.. لا يتكلمون ولا يرفعون عيونهم لكنك تشم منهم خليطًا مزعجًا من المقت والخبث والتملق والغضب المكبوت..

انتظرت مع (جرمينال) في الظلام قرب مكان تجمعهم.. وقعت عيني على رجل يقاربني في الحجم ووقعت عيناها على امرأة تقاربها في الحجم.. كانت الحيلة بسيطة بل هي أقدم حيلة في التاريخ.. يكفي أن تحمل شطيرة من الهامبرجر وأن تغري الرجل الجائع بها، فيذهب معك إلى خلف جدار.. عندها تهوي جرمينال على رأسه بقطعة قرميد أخفتها في حقيبتها.. والآن أستطيع أن أرتدي ثيابه ثم تقوم (جرمينال) بالشيء ذاته مع المرأة.. مزية هذه الثياب أن هناك بطاقة هوية في جيب كل منها..

الآن نصعد إلى الحافلة وقد تحولنا إلى رجل وامرأة منهم.. فقيران كئيبان.. الثياب كريهة الرائحة خشنة، لكن من قال إن المغامرات مريحة؟.. لا أحد يعرفنا في الحافلة لأن هؤلاء القوم لم يعودوا يعرفون من يأتون ومن يرحلون.. عندما نرغب في العودة سيكون هذا أسهل لأنني سأتصل بأمي طالبًا أن ترسل لنا من يعيدنا إلى (يوتوبيا).. حدث هذا مع (شادي) عندما وجد نفسه محاصرًا في (العتبة) عاجزًا عن العودة.. اتصل بأبيه ملك الاتصالات الذي أرسل له طائرة هليكوبتر خاصة بالمارينز، وكان المشهد دراميًا مروعًا عندما راحت الطائرة تحلق عموديًا فوق (العتبة) مطلقة رصاصها فوق

الرءوس بينما تدلي رجال الإنقاذ ليحم
(شادي) وصديده... وارتفعت الطائرة فـ
الرءوس كأنها إله وثني من أوثان الإزتك..
!.. أية إثارة !

همست (جرمينال) في أذني:

-"رائحة الثياب كريهة.. هذه المرأة لم تـ
تستحم.."

أمرتها بالصمت.. لم يعد يحمينا الآن

حسن تصرفنا بعد أن خرجنا من البوابة، وبعد أن تفحص رجال المارينز هوياتنا دون أن ينظروا لوجوهنا..

الليل والصمت وإثارة المغامرة.. والصحراء.. اعتقد أنني غفوت لبعض الوقت.

نحن الآن في العالم الآخر الذي تركناه منذ زمن يوم توارينا خلف أسوار (يوتوبيا)..

تدخل شبرا التي لم أرها إلا في أفلام السينما.. تتوقف الحافلة وسط الزحام ويترجل بعض الراكبين، فأشير لـ (جرمينال) كي تترجل معي.. هنا بداية لا بأس بها..

الآن فقط أفهم لماذا عزلنا أنفسنا في (يوتوبيا).. لم يعد في هذا العالم إلا الفقر وإلا الوجوه الشاحبة التي تطل منها عيون جاحظة جائعة متوحشة.. منذ عشرين عامًا كان هؤلاء ينالون بعض الحقوق أما اليوم فهم منسيون تمامًا.. حتى الكهرباء والماء مشكلة فردية لكل منهم.. من استطاع أن يحصل على مولد أو يحفر بئرًا فبها ونعمت، وإلا فعليه أن يتحمل..

الغريب أنهم تكاثروا بسرعة لا تصدق.. معدل الخصوبة عندنا في يوتوبيا يوشك أن يصير صفرًا، بينما معدلاتهم في ارتفاع متزايد.. ينجب الرجل عشرة أطفال يموت منهم خمسة لأنه لا توجد عناية طبية من أي نوع، لكن الزيادة مستمرة برغم كل شيء.. يبدو أنهم يعتمدون على الأعشاب والوصفات الشعبية اعتمادًا مطلقًا.. أبي يحتكر كل الدواء في السوق وأسعاره خيالية، لكن هناك دائمًا من يشتري.. لغز هذا البلد هو أن هناك من يشتري في كل وقت وبأي سعر، وهو ما يثبت لك أن (ماركس) أحمق على الأرجح عندما تصور أن التوازن سيأتي في لحظة لا يعود فيها الفقراء قادرين على الشراء..

بعض هؤلاء القوم متدينون.. لأن الدين هو الأمل الوحيد لهم في حياة أفضل بعد الموت.. لا يمكن أن يتعذب المرء طيلة حياته ثم يموت فيتحول إلى كربون بلا ثواب ولا عقاب.. عندنا في يوتوبيا متدينون كثيرون والطائرات الذاهبة للعمرة لا تتوقف، لكن السبب – كما أعتقد – هو خوف سادة يوتوبيا من أن يفقدوا كل شيء في لحظة، أن يصحوا ليجدوا أنفسهم وسط هذا الزحام.. إن الأمر يحتاج إلى عدد كبير من العمرات والأدعية بلا شك..

تشد (جرمينال) يدي في عصبية فأنظر إلى حيث تشير.. هناك قفص خشبي عليه أكوام من



جلود الدجاج بشعة المنظر.. المصيبة أن الناس يبتاعون هذه الأشياء.. أقاوم العصارة التي ارتفعت إلى حلقي وأجرها بعيدًا.. سوف تفضحنا بطريقتها الانفعالية الهستيرية هذه.. لو دقق أحدهم في وجهينا لرأى أننا لم نعرف الجوع يومًا..

أكوام من الثياب المتسخة المستعملة تباع بجنيهين للقطعة.. هذا سعر لا يصدق ويقترب من سعر لفافة التبغ التي أدخنها.. هناك من يقول إن الجنيه كان أعلى سعرًا من الدولار يومًا ما.. لا أصدق هذا وقد صار الدولار يساوي سبعين جنيهًا..

على جانب الطريق تقف فتيات قذرات بشعات المنظر يضحكن لي في إغراء.. أعتقد أن أصغرهن تجاوزت الخمسة والثلاثين منذ زمن، لكنها لا تمارس مهنتها بسبب تأخرها في الزواج بل من أجل المال.. أعرف أن سن الزواج كان قد صار أربعين عامًا للفتاة ولم يعد هناك سن زواج للرجل، ثم حدث أحد الانقلابات الاقتصادية إياها فصارت شروط الزواج أسهل.. يكفي أن تجد من تقبل بك، وعندها لا داعي للسكن ولا الراتب.. سوف يعني كل واحد بنفسه والأطفال سوف يجدون رزقهم بشكل ما.. هكذا انخفض سن الزواج من جديد..

هنا خطرت لي فكرة.. هنا صيد سهل بين
الذكور يمكن أن يكونوا خطرين.. يبدو
جرمينال فهمتها هي الأخرى فابتعدت عن
عدت إلى الفتيات الواقفات فانتقيت واحـ
منهن.. لم أخترها إلا على أساس قوتها
الجسدية.. سيكون عليها أن تتحمل مطار
عنيفة بالسيارات وسط الصحراء.. ربما تص
هدفًا للرماية..

دنوت منها فاعتدلت في وقفتها وضحـ
كاشفة عن أسنان صفر لم تغسل منذ عامين
فقلت لها بلهجة الخبير:

- "كم؟"
- "أنا آخذ جنيهين.. الليلة كلها بخمسـ
جنيهات.."
- "أين؟"

ضحكت في رقاعة ثم أشارت إلى المبا
المهدمة من حولنا وقالت:

- "في القصر بتاعي يا عين أمك.. أي مكان

نظرت للوراء فوجدت (جرمينال) تراقـ
الموقف.. هكذا جذبت الفتاة من معصمـ
ومضينا نتوغل وسط الخرائب.. من حين لآ
نقابل بعض الفتية جالسين القرفصاء يدخنـ
البانجو كريه الرائحة.. أو يمسكون بعلبة
أعرف محتواها يشمون ما بها.. ومن حين لآ
يناديناً أحدهم:

- "اتفضل !!"

يبدو أنهم يعرفون الفتاة فلم يتعرضـ
لنا.. وأخيرًا صرنا وحدنا.. فتحت فمها لتتـ
لكني في اللحظة التالية انهلت على جذور عنقـ
بضربة سيف يد تعلمتها عندما زرت (كمبوديـ
فسقطت على الأرض بلا حراك.. هنا سمـ
(جرمينال) تناديني.. بمعجزة ما اخترا
الخرائب بكل المتعاطين المتجمعين فيها..

قلت لها لاهثًا:

- "انتهى الأمر.. سأطلب أمي كي ترسل
يخرجنا من هنا.."

في هذه اللحظة سمعنا حركة.. رفعت عيـ
فرأيت عشرة من هؤلاء الشباب يحيطون بنـ
وسمعت من يقول:

- "هذان ليسا منا !... إنهما من مستعمـ
اللصوص !!"

وللمرة الأولى عرفت أنهم يطلقون عـ
(يوتوبيا) هذا الاسم..

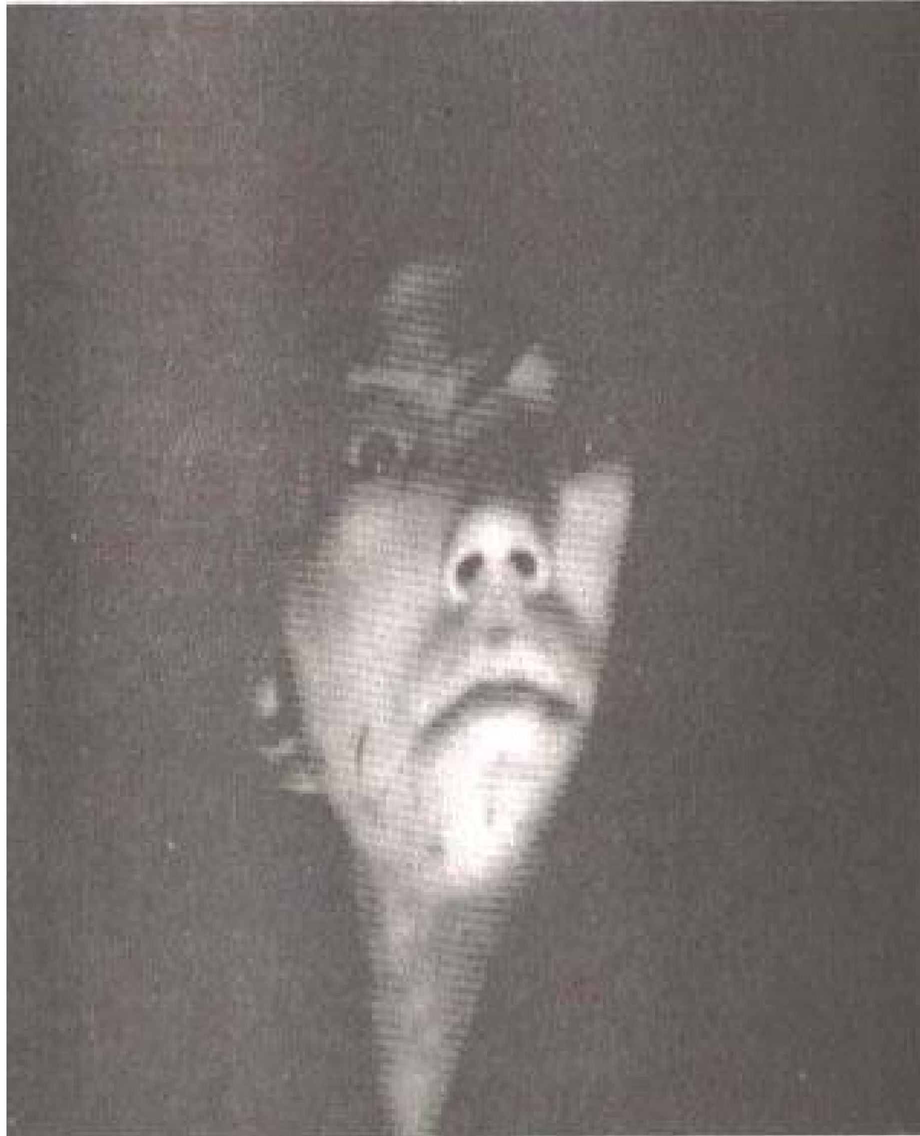
البقية في العدد القادم



قصة رعب

د. أحمد خالد توفيق

يوتوبيا (٣)



كان الحقد في العيون واضحًا جليًا.. ذات النظرة التي ظهرت في عيونهم وهم يهدمون (الباستيل).. وفي الأيدي التمعت نصال لا تنتمي للمدى إنما هي أجزاء من هياكل سيارات تم تحويلها لأدوات قتل.. هناك ماسورة مياه أو اثنتان على طريقة عصابات (نيويورك)..

ارتجفت (جرمينال) والتصقت بي.. لن نفلت من هذا..

وشعرت بيد تفتش جيبي في غلظة، ثم خرجت حاملة الموبايل..

عيونهم تحتشد على الجسد الراقد على الأرض.. الرسالة واضحة تمامًا وقد فهموها:

-"إنهم يخطفون أي واحد يجدونه منا ليتسلوا به عندهم، ثم يقتلوه"

أدركت أن الضربة الأولى هي التي ستفجر السد بعدها تنهال الضربات.. فقط من يبدأ بها؟.. وداعًا (جرمينال).. كانت حياة مملة برغم كل شيء.. ربما كان الخلاص منها نوعًا من التغيير..

هنا برز أحدهم ووقف بيننا وقال بلهجة آمرة:

-"لا تؤذوهم يا شباب.. إنهم أبرياء.. أنا رأيت الفتاة تسقط ولم يلمسها أحد.."

ثم همس في أذني:

-"هل معك فلوجستين؟.. بسرعة!!"

مددت يدي إلى جوربي وأخرجت الزجاجة الصغيرة التي تشبه أمبولاً يتم لصقه إلى الكاحل بشريط، فاختطفها مني ولوح بها أمام العيون:

-"هل تعرفون هذا؟.. (فلوجستين)!.. شيء يختلف كلية عن (الكُلة) والبانجو والصراصير.. خذوها وجربوا.. نقطة واحدة على الساعد.. لا تكثروا منه فقد رأيت من يموت في ثوانٍ لأنه وضع نقطتين"

على الفور نسوا كل شيء عن الانتقام، وانقضوا على الأمبول وراحوا يتبادلون الشتائم البذيئة.. فجأة لم يعد لنا وجود..

أشار لنا من طرف خفي لنبتعد فجرينا وراءه..

وسرعان ما كنا في مكان ما من هذه الخرائب.. ثمة كوخ صغير مكون من قطع خشب وأجزاء مفككة من هيكل سيارة وصحف وأشياء غريبة جدًا.. أزاح قطعة من الشمع لندخل ففعلنا هذا مجبرين..

كانت حالة الكوخ من الداخل أسوأ.. هناك إطارا سيارة يستعملان كمقعدين، وهناك موقد كيروسين صغير، وهناك أكوام من الكتب لم أر مثلها في حياتي..

للمرة الأولى أتمكن من تفحص ملامح هذا المنقذ.. كان في الثلاثين من عمره نحيلاً منكوش الشعر تبدو عليه بوضوح سمات سوء التغذية، وعلى أنفه نظارة تم

لحامها بالنار الف مرة، ومن تحتها وجه امتلا بالخياطة كأنه وجه المسخ فى أفلام (فرانكشتاين).. لاحظت كذلك أن له قرنية ذابت وتحولت إلى عجينة بيضاء.. قلت له:

ـ"شكرًا على إنقاذنا.."

قال وهو يزيح بعض الهملات ليسمح لنا بالجلوس:

ـ"اسمى (جابر).. لا شكر على واجب.. أكره القتل على الجانبين، برغم أنكما جئتما طبعًا للفوز بتذكار فريد"

ـ"لا.. لسنا من.."

نظر لى فى حدة بعينه التى تحولت إلى عجينة وقال:

ـ"لا تحاول خداعى.. كلنا يعرف ما يفعله اللصوص عندما يتسللون لنا.. ومتى فرغوا من مهمتهم جاءت طائرات المارينز لتنقذهم مع صيدهم.. ماذا يقول لك أبوك عندما تعود له بواحد منا؟.. (كخ)؟.. عيب؟.. يا للقسوة"

سمعنا حركة ودخلت الكوخ فتاة فى العقد الثانى من العمر.. يبدو أنها مليحة وإن كانت قذارة أسمالها تخفى أى حسن.. نظرة الحيوان الخجول المتوارى فى الدغل تبدت فى عينيها عندما رأتنا.. فيما بعد عرفت أن هذين العينين تنطقان بكل شىء، كأنهما متصلتان بالروح مباشرة...

قال لها باسمًا:

ـ"هذه أختى.. تعالى يا (صفية).. كنت تسألين عن منظر هؤلاء الأثرياء الذين يقيمون فى مستعمراتهم الخاصة.. هذان منهما!..."

نظرت لنا فى عدم فهم.. نحن نبدو فى حالة أسوأ منها.. فقال الفتى:

ـ"هذا لزوم التنكر.. نوع من الشحم الذى يضعه المتسللون على وجوههم.. لقد جاءوا ليظفروا بواحد منا يتسلون به.."

وبدأ انفعاله يتزايد رويدًا رويدًا كأنه يبصق الحقد الذى يتراكم فوق روحه:

ـ"لماذا لا تتركوننا وشأننا؟.. سرقتم منا الماضى والحاضر والمستقبل.. لكنكم تكرهون أن تتركونا.."

وقبل أن أفهم من أين جاء، ولا متى وجدت نصل سيف عملاق تحت ذقنى.. ومن بين أسنانه الصفر قال:

ـ"هل ترى أن آخذ منك تذكارًا كما تفعلون معنا؟... إن أذن فتاة ستكون تذكارًا ممتازًا.. أذن صغيرة حمراء نظيفة عليها زغب دقيق.. سوف يحسدنى الجميع عليها وربما اقترضوها منى.."

ثم انفجر فى ضحك وحشى.. ضحك وحشى.. وحشى..



فى النهاية هدأ.. فقال للفتاة:

ـ"أعدى لنا شيئًا يؤكل.."

الطعام الذى أعدته لنا كان خليطًا من الفول والطعمية.. بقايا أوشكت على الفساد من عدة وجبات سابقة قامت بخلطها وتسخينها على الموقد، ثم صبت على الخليط زيتًا وملأت قبضتها بالتوابل وسكبتها على الطنجرة..

قال (جابر) مفسرًا:

ـ"نحن نكثر من التوابل لأنها تخفى طعم أى شىء.. تخفى طعم الدجاج الفاسد والفول الحامض والبيض المشمش.. هذه هى السلعة الوحيدة التى لم يزد سعرها لأنها ضرورية كى نبقى كما نحن.."

وناولنى طبقًا وآخر لـ (جرميلا).. ثم ناولته الفتاة قطعة من خبز مسود فاحتفظ بها لنفسه..

كنت قد أكلت الفول من قبل.. إنه يساعدك على التفكير عندما تمل إفطارك المعتاد، لكن جهازنا الهضمى لم يعد يتحمله.. لهذا أحجمت عن الأكل لأنى لا أعرف كيف سيكون قضاء الحاجة عندهم..

قال وهو يقلب الملعقة فى طبقه:

ـ"بالطبع لا تفهمان شيئًا عن الوضع الذى صرنا إليه.. لكنى أكره ألا أخبركما بكل شىء.. الصورة التى تريانها كانت موجودة منذ البداية لكن بشكل غير واضح، ثم تضخمت شيئًا فشيئًا.. هناك لحظة يحدث فيها الانهيار ويصير الأغنياء أغنى والفقراء أفقر.. ويبدو لى أن هذا حدث فى العشر السنوات الأولى من هذا القرن.. فجأة انهار السد.. لم تعد السياحة قادرة

على إطعام هذه الأفواه.. إسرائيل افتتحت قناتها ال
صارت بديلاً جاهزًا لقناة السويس.. الدول الخليج
نضب بترولها وطردت العمالة المصرية.. هكذا وج
الاقتصاد عليه عبئًا قاصمًا.. كان آباؤكم من طب
استطاعت أن تستخدم نفوذها للإثراء.. حسابا
مصرفية فى الخارج.. قروض من المصارف
احتكار.. كل شىء كان فى مصلحة آبائكم وضد
على طول الخط.. هكذا استطاعت هذه الطبقة أ
تتماسك وتزداد ثراء، بينما هوينا نحن إل
الحضيض.. لكن الحياة معنا صارت أمـ
مستحيلاً... اضطرت هذه الطبقات إلى أن تعز
نفسها طلبًا للأمان فى تلك المستعمرات على الساح
الشمالى، وقد استعملوا رجال المارينز لأنهم يضمنو
ولاءهم بينما لا يضمنون ولاء البودى جارد المطحو
بدوره.. إن فكرة أن يثور محيط الفقر هذا كان
تؤرقهم.. كل الثورات الشعبية فى التاريخ بدأت بذب
الأثرياء.. هكذا تكون مجتمعان أحدهما يملك كل شى
والآخر لا يملك شيئًا.. أهمية المجتمع الثانى لا تز
على كونه سوقًا استهلاكية لا بأس بها.. حتى لو كا
يعانى الفقر فإن كثافته السكانية تسمح بكل شىء.. ا
ابتاع كل منا زيتونة فسوف يصير بائع الزيتو
مليونيرًا..."

ثم توقف عن الأكل وسألنى:

ـ"هل لديكم إسرائيليون فى يوتوبيا؟"

قلت فى دهشة:

ـ"كثيرون.. أعز أصدقائى منهم.."

قال وهو يعاود المضغ:

ـ"هذه سمة مهمة لدى قومك.. لقد اتخذوا موضعهم
فى الشرق الأوسط الجديد الذى كانوا يتحدثون عنه
المثلث الذى حلمت به إسرائيل كثيرًا.. مال خليجى
ذكاء إسرائيلى.. أيد عاملة مصرية رخيصة.. نحن ا
نكف عن اعتبار إسرائيل عدوًا"

قلت فى غيظ:

ـ"ولماذا أعتبر إسرائيل عدوًا؟.. هل لمجرد أن هـ
يروق لك؟"

نظر للفتاة وتبادل ابتسامة منهكة وقال:

ـ"ثم الآن.. ثم.. إن نصف ما أعرفه لا تعرفه
والنصف الآخر لا يهمك أن تعرفه.. ثم وفى الصبا
نرى كيف تخرجان من هنا محتفظين بأذنيكما.."

ثم هز الملعقة فى يدى وقال:

ـ"لا أعيب.. إنهم يعرفون مكانى وسوف يعودو
هنا عندما يزول مفعول الفلورجستين.. عندها يجب أ
أكون موجودًا لأحميكما وإلا........"

وأشار لعنقه بحركة ذات معنى..

البقية فى العدد القاد

قصة رعب

يوتوبيا (٤)

هكذا لم نستطع الفرار.. لم يكن هذا مطروحًا دعك من أننا كنا مرهقين فعلاً.. ألعن ليلة في حياتنا ونحن نجلس متلاصقين في هذا الكوخ كريه الرائحة لا نجرؤ على أن نتمدد أو نلمس أي جزء من الجدار... هكذا سوف نبقى حتى الصباح وبعدها؟.. كل شيء يتوقف على خطة هذا الفتى...

كان شخيره قد بدأ يتعالى وهو راقد في الركن منكمشًا على نفسه..

جلست أخته جوار (جرمينال) تنظر لها وهي شبه نائمة.. ظلت بضع دقائق تنظر ثم مدت يدها في حذر إلى شعرها وراحت تتلمس خصلة منه.. صحت (جرمينال) منتفضة وابعدت رأسها قليلاً ثم غاصت في النعاس ثانية.. قالت الفتاة بصوت مبحوح:

- "شعرها جميل.. جميل جدًا ونظيف.. لا أعرف كيف تصورتم أن تخدعونا.. ليس بشعر كهذا!"

ثم مدت يدها إلى يدي فأمسكتْ بأناملي برفق وقالت:

- "هل ترى الفارق؟"

نعم أرى الفارق.. يد ناعمة نظيفة منمقة ويد خشنة متسخة مقصفة الأظافر.. الغريب أن الأولى هي يد الرجل والثانية يد الأنثى..

قلت بلا مبالاة:

- "كنا في الظلام.. يمكنك أن تخدعي أي واحد في الظلام، وكنا سنعود بسرعة.."

ثم أشرت لأخيها النائم وقلت:

- "من أين يعرف هذا كله؟"

- "يصمم أن يقرأ.. يبحث في القمامة عن كل كتاب قديم فهي أشياء لم تعد تباع.. هذه مزية أن تهتم بأمور لم تعد تهم أحدًا.. على الأقل لن يسرقك الآخرون.. هذه الكتب ملقاة هنا منذ سنين بينما لا يمكن أن تترك عود ثقاب من دون أن يأخذه أحد.. إنه.."

ثم راحت تسعل في عمق حتى توقعت أنها ستبصق رئتيها خارجًا.. فانتظرت حتى فرغت وأنا أنظر لها في دهشة فقالت في شيء من الفخر:

- "هذا درن.. إنه يعود منذ تسعينات القرن الماضي..."

ثم أشارت لأخيها بعد ما بصقت في منديل صغير وقالت:

- "هو من طبقة (الكتبجية).. إنهم هؤلاء الذين دخلوا كليات أو جامعات منذ عشر سنوات ثم لم يجدوا عملاً، ولم يستطيعوا أن يصنعوا شيئًا بما تعلموه.. لكن علاقتهم بالكتب لا تنتهي.. منذ عشرين سنة لم يعد لأحد فرصة على الإطلاق.. لم لو يكن أبوك ضابط شرطة أو قاضيًا أو أستاذًا جامعيًا أو تاجرًا يورثك تجارته، فلا فرصة لك على الإطلاق وسوف تنضم لهؤلاء الذين يشمون (الكلة) في الخرائب.."

ثم تثاءبتْ كثور وأغمضت عينيها.. رحت أرقبها وأنا جالس.. مليحة بلا شك لكن كيف يمكن أن تجد هذه الملاحة تحت كل هذه الخشونة والقذارة؟.. هل تزيل كل هذه الأعوام من المعاناة والفقر والجوع؟... مستحيل.. هذه الفتاة ستتزوج واحدًا من هؤلاء يوسعها ضربًا ثم تموت في إحدى نوبات غضبه.. لا يبدو أمامها مستقبل آخر..

لم يفعل (جابر) شيئًا طيلة النهار التالي.. لما سألته عما ينوي عمله بنا قال في غموض:

- "انتظرا حتى الليل.."

- "ولماذا لم تتخلص منا؟"

- "لأنني أمقت العنف من الطرفين، ولأنكما جاهلان لا أكثر.. لم تفعلا إلا ما يفعله الفأر الذي يحاول سرقة بعض الخبز لأنه لا يعرف

شيئًا آخر.. هذه غريزته وتلك فطرته. لكنكما لستما فأرين.. هذا ما أحاول أن أخبركما به..'

ثم أخرج علبة بها بعض الشحم، ولوث أنامله ثم قال وهو يضع يده جوار خدي:

-'بعد إذنك!'

-'تفضل..'

هكذا لوث وجهي ووجه (جرمينال).. بعناية ودقة هذه المرة.. قام بتلويث يدينا ثم انتخب لنا ثيابًا أكثر قذارة.. هذه المرة كانت هناك أستاذية لا شك فيها في لمساته، حتى بدت (جرمينال) كالمتسولين واعتقد أنني أبدو بصورة أسوأ.. ثم شرح لي كيف نمشي وكيف نتكلم.. قال لي إننا بصدد جولة يريني فيها ذلك العالم الذي أجهل كل شيء عنه.. قال إننا أحرار لو أردنا الفرار لكنه لا يضمن حياتنا لحظة أخرى بعد هذا...

هكذا غادرنا الكوخ الحقير لنخرج إلى شوارع في غاية الازدحام والفقر.. هناك لمسات تدل على أنه كانت هناك حكومة يومًا ثم تخلت تمامًا عن كل شيء.. في الأزقة والشوارع الجانبية تحدث المشاحنات لأي سبب ومن دون مبرر..

-'إنها أخلاقيات الزحام.. ضع ست دجاجات في عشة ضيقة وراقب كم تصير مهذبة.. لو أن دجاجة واحدة لم تفقأ عين جارتها أو تلتهم أحشاءها فأنا مخطئ..'

سألته وأنا أمسك بيد (جرمينال) المتقعة ذعرًا:

-'لماذا تستمرون في التكاثر إذن؟'

-'لأن التكاثر هو رفاهية الفقراء الوحيدة.. دعك من أن كل هؤلاء يعتقدون أن واحدًا من أبنائهم سيغير كل شيء.. في انتظار هذا المجهول يتكاثرون، والصبي يسعى بحثًا عن رزقه كدجاجة.. لا أحد يعرف إن كان قد مات أو أكل أو نام.. في سن الحادية عشرة يتعلم استنشاق (الكلة) وبعد هذا يضطر لارتكاب الجريمة كي يتعاطى ما هو أفضل.. طبعًا من يسرقه فقير مثله لأنه لا أحد يستطيع أن يسرق منكم.. مستقبل مشرق كما ترى..'

-'ولماذا لا تثورون؟'

انفجر يضحك حتى سال دمعه وقال:

-'هذا شيء يتكرر من حين لحين.. لكن ثورات القرن العشرين التي تحقق غرض الجموع قد صارت تاريخًا بائدًا.. لقد تعلم من هم فوق من أخطاء الآخرين.. لن يرى أحد ثانية شاه (إيران) الذي يحلق بطائرته بحثًا عن بلد يأويه، ولن ترى جثة (شاوشيسكو) أو (موسوليني) معلقة في ميدان عام.. إن النظام الأمني معقد، متطور اليوم.. هناك ستة أجهزة أمنية تراقب بعضها ومهمة كل منها حماية الحكام.. إن ثورات اليوم هي أقرب إلى (هوجة) ثم تحلق طائرات الهليوكوبتر لتلقي عدة قنابل وتطلق عدة طلقات فيتفرق الجميع..'

في هذه اللحظة اقترب منا رجل رث الهيئة له لحية غير حليقة وإن كانت ثيابه توحي بأنها زي رسمي غير معتنى به.. ومد يده لنا:

-'هل معكما شيء يؤكل؟'

هز (جابر) رأسه وواصل المشي.. ثم قال:

-'إنهم في كل مكان.. لا توجد أعمال.. ما لم يجد عملاً في مستعمراتكم بالساحل الشمالي فلا أحد يريد منه شيئًا.. سوف يقضي حياته يبحث عن بقايا الطعام الملقاة في أكوام القمامة ثم يموت بالدرن ذات يوم فيجدونه جوار جدار.. هذه هي حياته..'

كنت في هذه اللحظة قد بلغت قمة التقزز والذهول.. كيف؟.. كيف سمحوا لأنفسهم أن يصلوا لهذا الحضيض؟.. كيف سيطر على هذا البلد واحد على مائة من سكانه بينما لم يتركوا للباقين أي شيء؟.. أتذكر (يوتوبيا) وبيتي والدولارات التي أبعثرها.. أتذكر الشلة والفلوجستين الذي أتحرق شوقًا له. أتذكر كلبي الذي يلتهم ما يشبع خمسة من هؤلاء يوميًا.. لست مستعدًا لحظة للتخلي عن هذا كله، لكني كذلك لا أبتلع فكرة وجود كل هذا الفقر.. الآن فقط أفهم هذه الأسوار العالية ورجال المارينز والمطار الداخلي.. لو تركنا كل هذا لسال هذا الطوفان ليغرقنا ويقتلنا.. لا أعرف كيف وصل الأمر لهذا الحد لكن لابد من أن يستمر..

(جرمينال) راحت تغلي وترتجف.. وراحت تغمغم من بين شفتيها:

-'يا الله!.. أريد أن أعود!.. أريد أن أعود!'

ضغطت على يدها كي تخرس...

كان هناك رجل يقف وسط زجاجات حوله، ويبيع زجاجات بها سائل ملون مدعيًا أنها العلاج الشافي من الدرن والسرطان.. إنها خلطة من الأعشاب صنعها هو ولا يعرف سرها اللصوص في (يوتوبيا).. إنهم ينفقون مالهم في هراء يبتاعونه بأغلى الأسعار بينما العلاج كله هنا..

هناك رجل يقف أمام منضدة خشبية مقلوبة عليها أجهزة صغيرة.. يقول صائحًا:

-'أفضل أجهزة سرقناها من (يوتوبيا).. تعال الآن!...'

وتوقفت عيناي على شيء ونظرت لـ (جرمينال) فوجدتها تنظر لذات الشيء في نهم..

كان هناك جهاز محمول صغير على تلك المنضدة، وعلى بعد متر واحد منا!

البقية في العدد القادم

غادرنا الزحام فتأخرت (جرمينال) قليلاً جوار أحد الأزقة، وقالت إنها راغبة في قضاء حاجتها. قال (جابر) بلا مبالاة إن هذا بوسعها. كل مكان يصلح.. الخدمات الصحية لا وجود لها لأن شبكة المجاري صارت تاريخًا.. في الماضي كانت الحكومة تتشدق بتجديد شبكة المجاري، لكنها أهملتها عندما صارت هناك وسائل أخرى للاستيلاء على المال وبعدما صارت اللعبة واضحة: نحن لا نبالي بكم على الإطلاق.. فلتأخذكم مصيبة..

غابت (جرمينال) في الزقاق لربع ثانية ثم عادت راجفة وهي تصيح:

-"إنه مليء بالشباب النائم!"

قال (جابر) ضاحكًا:

-"إنهم تحت تأثير (الكلة) ومسحوق الصراصير.. لا تخافي.. لو ان (مارلين مونرو) تعرت أمامهم لما حركوا ساكنًا.. هؤلاء انتهى أمرهم كرجال من زمن.. ربما انتهى بشرهم كبني آدم أيضًا!"

هكذا عادت إلى الزقاق.. فجأة رأيت منظرًا يشبه الغوغاء عندما هاجموا الباستيل.. حوالي عشرة رجال يحملون السيوف والعصي ويهرعون نحونا.. وهتف أحدهم وهو يشير لنا:

-"هؤلاء سرقوا المحمول!.. أنا رأيت الفتاة تدسه في جيبها!"

وانقض بعضهم على الزقاق فهرعت الحق بهم، لأجد (جرمينال) واقفة تحاول طلب رقم.. رقم أمها في (يوتوبيا) طبعًا... كانت ترتجف وعلى وجهها أعنف رعب رأيته في حياتي..

همس (جابر) في أذني:

-"أحمقان!... من الذي يبيع المحمول وبه خط؟... هذا يسهل اقتفاء أثره!"

خرج الرجال من الزقاق وهم يمسكون بـ (جرمينال).. وأقسم أحدهم أنها يجب أن تلقى عقابها هنا والآن وبطريقة الإيذاء المهينة التي يجيدها الرجال مع النساء.. لقد تحول هؤلاء القوم إلى مخلوقات أبعد ما تكون عن البشر.. قشرة المخ لم تعد تؤدي أي دور معهم.. فقط يتحركون للجنس أو العنف..

قال (جابر) وهو يقف وسط هؤلاء المسعورين:

-"اسمعوا.. هذه الفتاة جائعة.. أكثر جوعًا منا.. كلكم سرق يومًا بسبب الجوع.. لقد أخذتم ما لكم فاتركوها.."

ثم هوى على خدها بصفعة ألقت بها مترين إلى الوراء:

-"متسول يسرق متسولاً!.. كانت الحمقاء تحلم بالاتصال بأخيها الذي خطفوه في (يوتوبيا)!"

هنا فقط هدأ الجميع، وقال أحدهم وهو يرفع يده بما معناه (انتهى التجمع يا رجال):

-"لن يعود.. سوف يتسلون عليه ثم يقطعون يده ويلقون به في الصحراء، ثم يذهبون لأداء العمرة سائلين الله أن يغفر لهم.."

كانت (جرمينال) تبكي فعلاً، فازداد بكاؤها حرقة.. هذه جاءت في الوقت المناسب لأنهم تفرقو... وهم يضربون كفًا بكف..

دنا منها (جابر) ووجه لها ركلـ... في خصرها وقال:

-"يا بنت الـ (..).. أقسم بالله... أن هذه آخر مرة أحاول فيهـ... حمايتكما.. قلت لكما أن تتصرفـ... على مسئوليتكما الخاصة لو لـ... تنفذا أوامري."

هكذا نهضنا ومشينا وراءه في... خجل.. لقد جاءت اللحظة التي... يصفعنا ويركلنا فيها واحد من... هؤلاء.. صحيح أنه فعل ذلك كي لا... يمزقنا آخرون، لكني لا أقبل أن... يمد أحد يده علي.. حتى (مراد)... و(لارين).. لقد رددت الصفعة لـ... (مراد) ذات مرة.. أصيبت (لارين)... بنوبة هستيرية لأنني مددت يدي... على أبي، فقلت لها إن هذا ليس... تفضلاً منه.. بوسعي أن أكون أبًا... لألف طفل لو تفضلت ومنحتني الفـ... فتاة..أما وقد جاء بي للعالم فعليه... أن يتحمل مسئولياته في شجاعة..

كانت هناك بائعة عجوز تضـ... كومة من الصحف.. صحف جديدة... غير مقروءة.. يبدو أنها تبيعها... بالكيلو.. وثمن الخمسـ... كيلوجرامات بيضة كما قالت..

ابتاع منها بعض الصحف... مقابل علبة ثقاب، ثم عاد لنا وهو... يتصفح تلك الأشياء.. ناولنا واحدة... منها وقال:

-"هذه هي الصحافة الوحيدة... الرائجة اليوم.. غلاف الجريدة لا... يخلو من عبارات (كشف المستور)... و(في الغرف المغلقة) و(الجن)... و(الاغتصاب).. الخ.. مع تلميح عا...

يوحى بأن كل النساء عاهرات وكل الرجال قوادون.. لابد من عدة صور عارية من المجلات الأجنبية، مع وضع علامة سوداء على العينين، كأنهم لا يريدون فضح البريئات صاحبات هذه الصور.. وبرغم جو الانفلات الجنسي العام فإن العاهرات الفقيرات قبيحات كالأبالسة، لهذا يبتاع الشباب هذه الجرائد بحثا عن فتيات حسناوات.. أما النوع الآخر من الصحافة."

وفتح جريدة أخرى وأردف:

".. فهو عبارة عن رسائل حب موجهة للحكام.. كلام لا يعنى أى طرف ولا أحد يقرؤه إلا الحكام.. فيما مضى كانت هناك معارضة وكانوا يهتمون بمهاجمة هؤلاء الكتاب، ثم فهموا أن تدخلهم فى رسائل الحب هذه قلة ذوق.. كأنك تقرأ خطابات غير موجهة لك!"

ثم أضاف وهو يطوح بالجريدة:

-"هذه الصحف سلعة ممتازة للف الأشياء... كما أنها حلت مشاكل انقطاع المياه!.."

لم أكن ذا مزاج للمزاح، فقلت له:

-"ماذا تنوى عمله معنا؟"

-"سأرجعكما إلى (يوتوبيا) طبعًا.. لا نية لى فى قتلكما.."

-"وكيف؟"

ظل محتفظًا بصمته.. محتفظًا به حتى ساعات المساء الأولى عندما غادر الكوخ لمدة ساعة.. جلست مع (جرمينال) أراقب (صفية) وهى تعد العشاء.. همست (جرمينال) فى أذنى:

-"لا تقل إنك تريدها.."

لم أمانع.. لها مذاق خاص فريد يختلف عن مذاق الفتيات اللاتى اعتدتهن.. اللاتى لهن نفس العطر والشعر الحريرى والوشم والقرط فى الأنف أو الشفة السفلى.. أعرفهن وأحفظهن كما تحفظ أنت الدجاج.. لا توجد دجاجة تختلف عن الأخرى ويمكنك أن تشعر بأنك أكلت هذه الدجاجة من قبل، أما هذه فلابد أنها تجربة تختلف.. لكنى لن أجازف بمغازلتها ونحن تحت رحمة (جابر)..

جاء (جابر) بعد قليل وجلس وعلى وجهه علامات الجدية.. قال لى:

-"أنا لا أثق بقسمكم لأنكم تتعاملون معنا كأننا تحت مستوى الآدمية.. وتكذبون علينا بالسهولة التى يكذب بها المرء على خروف، لكنى سأجرب لمرة واحدة.. ما ستريانه سيبقى سرًا.."

ثم أردف وهو ينهض:

-"لقد اضطررت لإجراء صفقات كثيرة.. كلفنى هذا مالاً.."

-"إن أبى...."

رفع يده فى كبرياء، وقال:

-"لا أريد سماع كلمة عن أبيك. والآن هيا بنا."

وفى الخارج وقفنا وسط الزحام خائفين.. هوذا يتجه إلى وكر قذر تهبط إليه على صخور محطمة.. وفى نهاية الساحة ترى حافلات عتيقة يسيل منها الزيت والكيروسين وتهدر بلا انقطاع..

صعدنا إحدى هذه الحافلات سامعين المنادى يصيح أنه [illegible] للساحل الشمالى..

سقط قلبى فى بطنى.. معنى هذ[ا] أن هناك سبيلاً للعودة.. لكن ماذ[ا] عن الحراس؟.. ماذا عن المارين[ز] والوصول إلى يوتوبيا؟.. رباه!..

الرحلة تنطلق وأنا أرقب (جابر) الجالس صامتًا أمامى.. وأختلس النظر إلى (جرمينال) ثم كل الوجوه التعسة للعمال الذاهبين للعمل فى مستعمرات الساحل.. الفرانين وجامعى القمامة وصائدى الفئران... كلهم سيئو التغذية ممتقعو الوجه.. كلهم مهزومون.. كلهم واهنون.. كلهم.. من الخير لهم أن يموتوا هنا والآن.

رباه!.. فلوجستين!.. كم أتحرق شوقًا له!.. لو سارت الأمور كما أتمنى فلسوف أتذوقه من جديد خلال ثلاث ساعات أو أقل..

أرقب معالم الطريق ونحن نتجه إلى الاسكندرية..

معالم الساحل الشمالى.. وجه (جابر) الصلب يرتسم على معالم الطريق المظلم.. فقط ترتسم عليه أضواء الطريق..

ما هى خطته؟..

الاحتمال الأخطر أنه يرتب لنا مقلبًا ما.. ربما يريد التخلص منا بعيدًا عن أرضه.. جثتان فى الصحراء، ولا يعرف أحد من فعلها.. للأسف ليس لدى حل إلا أن أثق به ثقة مطلقة..

فجأة توقفت الحافلة وسمعته يقول لنا فى الظلام:

-"هيا بنا!!"

البقية فى العدد القادم

قصة:

ظلام الليل والصحراء ...
ظلام الاحتمالات والأفكار ..
اعرف أننى استطيع قهر (جابر) لو هاجمنا .. لن ينتصر الفقر والشحوب وسوء التغذية على الثراء، والرياضة منذ الصغر .. لكن (جابر) يمشى وسط الصحراء بين النباتات الشوكية وبقايا الصبار .. يلتف وراء تل صغير ويطلب منا اللحاق به، فهرعت و(جرمينال) إلى هناك متوقعين الأسوأ .. الأسوأ كان هناك بالفعل وهو رجلان تبدو عليهما الشراسة والقوة ومسلحان .. تبادلت و(جرمينال) النظرات .. هل حان الوقت أخيرًا؟ لكن ثلاثة رجال كانوا راكعين على ركبهم ينبشون الرمال بأظافرهم ومدى صغيرة على ضوء كشاف.. أحدهم نظر لنا فى شراسة كما يفعل كلب تفاجئه أثناء النبش عن عظمة، ثم عاود العمل.. قال أحد الرجلين دون أن ينظر لنا:- "هل أنت ضامن لهما يا (جابر) ؟"

قال (جابر) وهو يواصل الحفر:- "مثل نفسى .." ثم مد يده ودس أشياء فى يد الرجل .. أعتقد أنها مخدرات فالمال لا يبدو هكذا .. فتحت فمى لأتكلم فصرخ (جابر):- "اخرس يا (حنفى) !!.. عندما تدخل حاول أن تسرق لنا بعض الفلوجستين .. إن (حبارة) و(شيحة) لم يجرباه قط .."

تلمظ أحد الرجلين حالما بينما ظهر الشىء الذى كانوا ينقبون عنه.. بوابة حديدية صغيرة مدفونة تحت طبقات من الرمل، وقد أزاحها المدعو (حبارة) فرأينا درجات خشبية مثبتة فى جدار رأس.. قال (جابر) وهو يصوب الكشاف إلى داخل هذه البئر:- "انزل يا (حنفى) أنت و(نفيسة).." أنا (حنفى) وهى (نفيسة) ؟؟ .. لكننا على كل حال اندسسنا فى الفتحة ورحنا نهبط الدرجات الخشبية فى الظلام غير عالمين إلام تقودنا .. وسمعت (جابر) يقول للرجلين:- "سأوصلهما لأقرب نقطة ثم أعود .." ثم سمعت جسده ورأيت ضوءه ينزل وراءنا .. فما إن صار بيننا فى قاع البئر حتى صحت:- "ماذا يحدث هنا ؟"

قال وهو يتقدمنا عبر ممر مظلم:- "أنفاق !... منذ البداية هناك أنفاق سرية يمكننا بها الدخول إلى (يوتوبيا) لسرقة ما نريد .. من السهل أن تغادر (يوتوبيا) لكن من المستحيل أن تدخلها من دون بطاقة (عبودية).. قام هؤلاء البلطجية بحفر هذه الأنفاق وهم يؤجرونها لمن يدفع .. الثمن يكون مالاً أو مخدرات .. طبعًا من الواضح أننى أقنعت هذين أنكما فقيران مثلنا وأنكما تريدان تجربة السرقة .. لو قلت إنكما من أهل (يوتوبيا) لمزقاكما فى اللحظة ذاتها.." هتفت (جرمينال):- "أى أن هذا النفق يقود إلى ..." -"إلى قلب (يوتوبيا).. جوار ذلك (المول) الكبير الذى نسيت اسمه .. سوف تخرجان هناك وأعتقد أنكما لن تجدا صعوبة فى الوصول لداريكما .."

قلت فى انفعال:"لماذا تفعل هذا كله؟"

-"لأثبت لنفسى أننى لم أتغير وما زلت أفضل منكما .. ولأننى لا أحب القتل .. لو ظللتما فى العالم الخارجى معنا لقتلتما لا محالة سواء افتضح أمركما أم لم يفتضح ..." ثم ابتسم وغمغم بشىء فى الظلام فسألته عما يقول .. قال بصوت أعلى وهو يواصل طريقه:- "عندنا شاعر اسمه (عبد الرحمن الأبنودى).. هل سمعتما عنه؟"

-"لا .." -"بالطبع .. كان هذا الشاعر يقول: إحنا شعبين شعبين .. ادى الأول .. قول التانى فين ؟.. ارسم خط ما بين الاتنين .. إحنا ولاد الكلب الشعب .. إحنا بتوع الموت فالحرب .. والضرب ببوز الجزمة والكعب ...."

لم أفهم شيئًا .. فقط أفهم أنه يغلى من الحقد الاجتماعى .. هذا هو كل شىء.. قلت له فى الظلام:- "برغم كل شىء .. أنت إنسان نبيل.."

لم يرد وواصلنا تقدمنا .. مشينا نحو عشر دقائق وفى النهاية أدركت أننا فى قاع بئر أخرى وأن درجات صاعدة تقودنا للسطح.. هناك صخور مكومة بحيث تسهل لك الوصول لأسفل الدرج .. بصعوبة منعت نفسى من الصراخ فرحًا و(جرمينال) راح صدرها يعلو ويهبط ..

قال (جابر) وهو يشير بالكشاف لأعلى:

-"لأسباب واضحة لن ألحق بكما .. أنتما فى أمان الآن .. وداعًا .. فقط لا تعودا ولا تحاولا صيد واحد آخر منا .. فلن أكون موجودًا المرة القادمة .."

قالت (جرمينال) فى تأثر:-"أنت رائع يا (جابر).. شكرًا لك .."

لم يرد واستدار ليرجع وضوء الكشاف يحيط به كأنه رؤى.. لابد أنه ظل محتفظًا بتأثره حتى اللحظة الأخيرة .. لابد أن ابتسامته الخافتة لم تفارق شفتيه بينما وجهه يهوى ليتمرغ فى التراب .. لابد أنه لم يذق

الدم الذى سال من شدقيه .. لابد أنه لم يدرك أننى التقطت ذلك الحجر وهويت على مؤخرة رأسه بأقوى ما استطعت.. ومددت يدى أعبث فى حزامه .. اضطررت لأن أقلبه على ظهره فسال الدم كالنهر من مؤخرة رأسه .. التقطت السكين .. السكين التى رأيت مقبضها فى حزامه منذ بداية الأمسية .. لابد أنه كان يخافنا بالقدر الذى كنا نخافه به وأراد أن يؤمن نفسه.. صرخت (جرمينال) فى هستيريا: ـ "لماذا فعلت ذلك ؟.. لقد ساعدنا !" قلت وأنا أقوم بما يجب أن أقوم به: ـ "وانتهى دوره عند هذا الحد !.. إنه أحمق وعليه أن يدفع الثمن .. أنا لن أقوم بكل هذه المغامرة وأعود من دون تذكار.. "

للأسف لن أستطيع أن أحمل جسده صاعداً الدرجات .. كما أنه مات على الأرجح فلن يوفر مصدراً للتسلية .. إذن لم يعد يهمنى من أمره سوى هذا الشىء الذى أخذته ولففته فى السترة المتسخة التى منحها لى.. تركته حيث هو وصعدت الدرجات .. ستكون كارثة لو كان قد خدعنا لكننا عندما أزحنا الفتحة رأينا أضواء يوتوبيا تحيط بنا .. على بعد خطوات مول (إيليت) المفضل عندى.. أرى لافتته الملونة وزحام السيارات حوله .. حمداً لله!.. لقد نجونا.. سيكون صعبًا أن نفسر لمن يرانا أننا لسنا من الفقراء المتسللين.. الأصعب أن أخفى هذه اليد التى بدأ الدم يتساقط منها .. لكننا سنقابل مصريين أو إسرائيليين وهؤلاء يمكن التفاهم معهم .. بينما لا يمكن التفاهم مع المارينز الذين يطلقون الرصاص ثم يتكلمون.

ساعدت (جرمينال) على الخروج ووقفنا هناك فى البرد الذى يبعثه هواء البحر، وسط أضواء المساء الملونة وتعانقنا .. لقد تمت المغامرة ونجونا!

قلت لها ونحن نشق شوارع (يوتوبيا) شبه الخالية فى هذه الساعة: ـ "بشكل ما يستحق الفقراء كل ما هم فيه .. إنهم أقل ذكاء من آبائنا .. إنهم ضعيفو الإرادة خاملون .. تركوا أنفسهم يُسرقون كل هذا الزمن من دون أن يحركوا إصبعًا .. هم بهذا انحدروا إلى درجة أقل من مرتبة الحيوان .. حتى النحل يلدغك لو حاولت سرقة عسله، والدجاج ينقر قدميك لو حاولت سرقة البيض .. بينما هم ظلوا خائفين صامتين .. لهذا لا أحمل أى تعاطف نحوهم وقد زادتنى هذه المغامرة مقتًا لهم .. حتى (جابر) هذا – رحمه الله – مجرد متحذلق لا يكف عن الثرثرة ولا يفعل أى شىء .. "

قالت وهى ترتجف كلمات لم أتبينها فسألتها أن ترفع صوتها .. قالت: ـ "إحنا شعبين شعبين .. ادى الأول .. قول التانى فين ؟.. ارسم خط ما بين الاتنين .. ألم يكن شاعره يقول هذا ؟" ـ "نعم .. وهو صادق على طول الخط !"

كانت الاحتفالات صاخبة بعودتنا وسالت أنهار من الخمر والفلوجستين .. حكيت قصتنا ألف مرة وفى كل مرة أضيف تفاصيل جديدة تثير الخيال .. لقد صرت رجلاً .. ذهبت إلى هناك وعدت بيد أحدهم. على أننى فوجئت ذات صباح بجو عام من التوتر فى (يوتوبيا).. وجاء (مايك

روجرز) رجل المارينز يقول: إن علين ألا نغادر بيوتنا إلا للضرورة .. فسأل (مراد) أبى عمـا هنالك .. قال إ الفقراء ثائرون .. ـ "وما الجديد ؟ إنهم يفعلون هذا مرتين فى العا ويخبو حماسهم بسرعة .. " ـ "هذه المر هم أعنف وأكثر تصميمًا وتنظيمًا . يقولون إن أحدهم ساعد شابين مر يوتوبيا على النجاة لكنهما قتلا وقطعا يده !.. هذا أشعل ثورة لا يمك السيطرة عليها "

ثم أضاف فى لهجة ذات معنى ـ "إن الجيش يحاول لكنه ليس متعاو جداً .. لا أريد أن أثير ذعر أحد لكن أقترح أن تتأهب الطائرات .. ربم نطلب منكم الفرار فى أية لحظة !"

هذا لن يكون .. هذه أرضى وهذ عالمى .. ولدت هنا .. لو كان أبى ق سرق هذه الحقوق فهى قد صارت لى بحكم الوراثة، ولن أتخلى عنها م أجل (حبارة) و(شيحة) وأمثال (جابر والمتسولين وعاهرات الأزقة .. هكذ جريت إلى برج المراقبة برغم محاول المارينز منعى، حيث اتخذوا أوضا تأهب للقتال وأعدوا قنابل الغا والبازوكا .. رأيت الفقراء هنال قادمين على مدى الأفق.. يحملو المشاعل ويصرخون غضبًا .. بعد رب ساعة سيكونون هنا .. هذا لن يكو .. لن يكون .. لن يسلبونى ما أخذ أبى منهم أبداً !.. انتزعت البندقي الآلية من يد (مايك) الواقف جوار وصوبتها نحو كتلة البشر القادمة ف الأفق .. ورحت أطلق النار .. أطلق النار .. إحنا شعبين .. أطلق النار إحنا بتوع الموت ف الحرب .. أطلق النار .. أطلق النار.. **تمت**